الفصل الخامس
لورانس ونقاده

حظي نشر كتاب ريتشارد الدنغتون الذي جاء بعنوان «لورانس العرب» باهتمام جماهيري ملحوظ. ربما تدل عبارة (القرار القضائي) التي أطلقها على التحقيق الذي أدرجه في سيرته الذاتية التي عادة يترك أمر الحكم فيها لوجهات النظر والرسائل التي أرسلت إلى الناشر على أن الكاتب قد فشل في برهنة وجهة نظره الهادفة للنيل من لورانس العرب؛ ولذلك أقول بأن الدنغتون لم يكتب سوى كتاب عقيم.

أصبح من المؤكد الآن أن أي كتاب يكتب عن لورانس سيحقق مبيعات كبيرة؛ وذلك ليس بالضرورة بسبب مزاياه الجوهرية، بل بسبب الشهرة العظيمة التي حظي بها لورانس خلال فترة قصيرة، وبسبب الحياة غير الاعتيادية التي عاشها. الواقع أن القارئ لا يجد أي كتاب من هذا النوع مملاً خاصة إذا كان يعرف بفعل تجربة حقيقية أو أنه يكلف نفسه دراسة جادة للجو العام ولخلفية المسرح الذي مثل فيه لورانس دوره. لكن الأغلبية العظمى من القراء لا تتمتع بتلك الميزة والخبرة، كما أنه ليس من غير الممكن أن يشعر العديد منهم ــ إن لم تكن أغلبيتهم ــ بالملل والتعب من الجهد الذي يبذلونه لفهم فحوى مثل ذلك الكتاب. ربما يتكون لديهم إحساس وشعور مماثل للشعور الذي يحصل لديهم عندما يقرؤون كتاباً لأنشتاين ولتفسيراته الخاصة بالنظرية النسبية. لكن مما هو مؤكد أن القراء أسهموا في إنجاح

هذه الكتب تجارياً، إلا أن آراءهم لا تشكل شيئاً في صياغة الحكم القضائي النهائي على النتيجة الفعلية لهذه الكتب. حدث في أحد الأوقات أنه كان من الدارج على ألسنة الناس أن يقولوا بأن الواحد منهم قرأ كتاب «الأعمدة السبعة» لكنه لم يكن من الصعب على الإطلاق التأكيد بأن مثل ذلك الادعاء كان خالياً من الصحة.

إن ضريبة المجد والشهرة تقتضي الكشف عن غايتها وغرضها ليتم فحص كل وجه من أوجه حياة الكاتب الخاصة والعامة فحصاً مجهرياً دقيقاً. ولا يمكن لأي رجل سواء أكان حياً أم ميتاً أن يتعرض أو يستاء من مثل هذا التمحيص والثناء الذي يسهم في رفع شأنه في التاريخ الإنساني. سيبقى فكر أنشتاين يحفز فضول العلماء لسنوات عديدة قادمة. إن المؤرخين المسلمين نقبوا وفتشوا بشكل دقيق عن كل كلمة أو ملحوظة أو تصرف صدر عن أولئك الذين كتبوا عن تاريخ أصحاب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وعن حياة الرسول العامة، أو عن حياته الأسرية الخاصة.

إن العالم يريد أن يعرف كما أن له الحق في أن يعرف كل ما هو متوافر ومتعلق بشخصيات أبطاله. سينبش رجال التاريخ عن أسرار هؤلاء الأبطال، وستتكشف الأمور من مصادر محتملة أو ربما غير محتملة؛ ولهذا يترتب على المؤرخين أن يكونوا نزهاء للورانس ولموضوعه. ولعل المؤرخ -وضمن حدود فرضتها الحقائق- انخرط في تكهنات لها علاقة بالأسباب والدوافع، لكن كان يجب عليه أن لا يرضخ لمغريات التزلف والتملق أو لأي شيء مماثل. كان عليه أن يكتب عن اتهامات يمكن أن يبررها ولا علاقة لها بسوء تصرفه، أو بدوافع غير نزيهة خاصة إذا كان الشخص الذي يكتب عنه ميتاً لا يمكنه الدفاع عن نفسه.

وبموجب هذه المقاييس يمكن القول: إن المادحين -وهم كثر- فشلوا في خدمة أنفسهم، وفي إعطاء لورانس حق قدره، كما فشل أولئك الذين انتقصوا من قدره -وهم ليسوا إلا حفنة من الرجال-. فإن التعابير التي استخدموها مثل تعبير (أمير مكة)، وتعابير مقارنته بنابليون، وما إلى ذلك من تعابير، ما هي إلا كلام فارغ غير جدير بأقلام المؤرخين الجادين. جاءت أسطورة لورانس -والتي لم تتردد في الصحراء العربية إلا على أنها نسخة باهتة عن القصة الأمريكية الزاخرة بالأعمال البطولية- أحد أعمال لويل توماس، وهو أحد الناشرين النشطين في عصرنا الحالي. بحث توماس عن القصص الرومانسية ووجدها في أقاصي العالم المنقع بالدماء، فاستنفذها لآخر نقطة، وقدم إلى العالم شخصية بطولية ليعجب بها بشكل أعمى. كما قد تلمس متعصبون آخرون الطريق نفسه وعلى غير هدى مشبعين جماهير الجهلة غير القادرة على التمييز بمرق الحساء الروماني الذي كانت تبحث عنه. ألحقوا بتصرفهم ذلك الضرر الواضح بشخصية استنبطوها لتكون غير معقولة ولحدٍ ما مضحكة. ويكمن أحد مقاييس عظمة لورانس في حقيقة أن سمعته بقيت حية بعد ثناء أصدقائه عليه.

ماذا يمكن أن نقول بخصوص الذامين للورانس؟ طرح الدنغتون السيد بري ليدلي بشهادته، واعترف هذا الأخير بأنه انجرف بعض الشيء إلى العالم المنسي عندما تحدث عن حادثة تتعلق (بثورة الصحراء)، وبالتحديد الحادثة التي قام بها ٤٠٠ شخص عربي في الاستيلاء على الوجه. وقال بأنه كان شاهد عيان على ذلك، وقد أدهشه تصرف حلفائه من العرب. ولكن ما علاقة لورانس بهذه الحادثة التي يقال بصددها إن لورانس يتحمل مسؤولية الإخلال بالأنظمة العسكرية لكونه تأخر عن القتال لمدة يومين. ويصف بري هذا الإهمال على أنه تهرب من الخدمة

العسكرية. هذا مع العلم أنه لم ترد أية إشارة إلى أن بري -ومن خلال جهوده الفاشلة في إنقاص قدر لورانس- كان مهتماً في إبراز ادعاء بطله ورفعه إلى المكانة التي احتلها لورانس في صرح شهرته. كان الكولونيل ليتشمان شهماً شجاعاً لكن ينقصه الذكاء، وتنقصه السمات الأدبية التي تتمتع بها الشخصية البطولية. كان الدينغتون -على ما يبدو- بحاجة ماسة إلى براهين موضوعية، فلجأ في تشريحه لجثة ضحيته إلى أسلوب التحليل النفسي. كان في حوزته هيكل عظمي قدمه على أنه دليل على نظريته التي هي من بنات خياله.

كان هناك أمر توجب على لورانس إخفاؤه، وهو السر المرعب الذي يتعلق بمولده غير الشرعي، لكن ذلك السر انفضح في الأوساط التي كان لورانس يتردد عليها وفي الأوساط المطلعة أيضاً. ولم يكن لديَّ -شخصياً- أي سبب يحملني على الافتراض أنه كان يولي ذلك الموضوع أي تفكير أو اهتمام، وأعتقد أن أولئك الذين عرفوا لورانس حق المعرفة، أو ربما عرفوه أفضل مما عرفته، يؤكدون صحة ذلك الانطباع. وحب معرفتي لم تلصق به تلك الحقيقة لأسباب عدوانية إلا بعد أن وجد الدينغتون ضرورة أن تكون تلك الحقيقة جزءاً مهماً في حملته الرامية لتشويه سمعة لورانس. وعليه تابع سرد تلك الحقيقة بكل التفاصيل ليزور بها كل ما يمكن أن يصدق عن لورانس.

بعد ذلك عمد الدينغتون إلى تشخيص التجارب الجنسية لضحيته التي ارتكزت في معظمها على التكهنات مع إشارات طفيفة إلى حوادث يمكن أو لا يمكن أن يكون المؤلف قد أشار إليها ضمنياً. وهذه الحوادث لا تبرهن في الواقع على أيّ شيء. السؤال هنا هو: لماذا لا نقبل اعتراف لورانس بأنه كان شخصية محيرة جنسياً؟ لم يكن لورانس مهتماً بالنساء، وعلى الأرجح أنه كان خجولاً جداً

منهن. كما أنه لا توجـد أية دلائل تشير إلى أن تفكير لورانس كان موجـهاً وجهة ذلك المنحى، علماً أن ظروف حـياته في أطراف الصحـراء العربية، وفي القـواعد الجوية قد جعلتـه أكثر علماً بالحقائق العادية التي تتعلق بمجـتمع الرجال. كان من الممكن أن يحمله حسه الفني على تلمس الجمال في وسط تعج فيه البشاعة وانعدام الجمال. كانت دواعي سـروره في الحياة محصورة في المجالات الـفكرية والجمالية الأدبية، في حين اشتملت نشاطاته الجسدية على جـهود كان يبذلها لتنقية سريرته؛ وذلك عن طريق كبح شهوات الجسد والمعـاناة والإجهاد. لعله من الغريب حقاً أن نجد رجلاً بمثل هذه الميول الخلقية يسمح لنفسه بأن ينغمس في الرذيلة في الخفاء، وهنا أكرر وأقـول بأنه لا توجد أدلة عـلى ذلك. وإذا كان لا بد من الاعـتراف بما ورد في روايتي الدينغتون فيبدو أنه ليس في حياة لورانس ولا في الظروف التي مر بها في بداية حياته، ولا في بنيته الجسدية ما يدعم الاستنتاج المتعلق بمركب النقص في شخصيته، مستنداً على عيب مسـتتر يتوجب حجبه عن العالم. ولكن ما الذي يمكن أن نحـققـه من النظرية السلوكـية والتـقلب في السلوك الشـخصي وانعـدام المسؤولية وذنوب طفيـفة أخرى عديدة حاول الدينغتون من خـلالها أن يضع لنفسه منها ذخـيرة يستـخدمها في مـحاولته إقناع الرأي العـام بأن لورانس كان محـتالاً صـرفـاً، وأنه نجح حـتى الآن في خـداع كل الناس، وفي كل الأوقـات، وذلك بسلسلة متواصلة من الأحداث؟

وبالطبع كـان من المفـروض على الدينغـتـون أن يدلي بكل برهان ودليل ضـد ضحيتـه ليضمن صدور حكم قضائي من قبل الرأي العـالمي، الذي كان يتوجه في كتاباته إليه. كان مقرراً له أن يخسر -وبالفـعل خسر- في قضيته تلك، فلا يوجد أثر للنيل من شخصية لورانس. فقد كان كالعرافين الذين يرفضون قبول أي سلوك

أو معيار أو قرار لم يسبق لهم أن امتحنوه وتحققوا من صلاحيته بأنفسهم. هذا ولم يلزم نفسه بأي من المعايير التي لم يقبلها في أي وقت من الأوقات. ربما تغير الظروف والأحوال من ماهية القيم. كان لورانس يجد متعة في الهزء من الروتين الرسمي المبتذل والمتبع في الإدارة العسكرية والمدنية، ضارباً بعرض الحائط حقيقة أن أصحاب العقول الضيقة كانوا بحاجة إلى ضوابط قاسية تضمن سير آلية الأعمال التي أوكلت إليهم دون أية عقبات. كان يرتدي في الصحراء العربية الزي العربي الفاتن الذي يرتديه أثرياء مكة في المدن وفي المناسبات وفي الأعياد الرسمية. أما في القاهرة فكان يرتدي الزي العسكري الذي يمكن أن يكون في نظر قائد الشرطة العسكرية مخلاً في العديد من جوانب الانضباط. كان لورانس بالفعل محباً لأن يلتقط الناس صوراً له، ومن المرجح أنهم فهموا قيمة الحملات الإعلامية الرامية إلى الشهرة وقيمة فائدتها له في تحقيق أهدافه الشخصية العزيزة على نفسه. تعامل مع مسؤولياته المالية بشيء من التهور وقلة الاحترام، ولو أن شخصاً آخر فعل ذلك لألقي به فوق الجمر. لكن من الصعب معرفة الأسباب التي حملته على فعل ذلك مع استثناء واحد: هو أنه حقق بالفعل الاستقلالية الضرورية التي يمكن من خلالها إنجاح مهمته التي كرس لها نفسه، كما اتبع في ذلك الأسلوب الأمثل في نظره. ربما كان هناك أسلوب معين لجنونه، وذلك الأسلوب لم يكن بعيداً عن السذاجة والسخف الذي تجلى في إقران أهمية غير مناسبة لتصرفاته الغريبة الأطوار التي لم تكن سوى هذر ناجم عن فكر متألق في الذكاء. كان لورانس يتلمس طريقه وسط شبكة من الدسائس والإحباطات للوصول إلى حل إحدى المشاكل المهمة التي سببتها الحرب العالمية الأولى.

إذا كان الحكم السياسي الذي أطلقه لورانس على الأمور حكماً خاطئاً في معظم الأحيان، فلم يكن هو الشخص الوحيد الذي اقترف هذه الأخطاء. فالشيء المهم هو أن لورانس نجح في جعل كل شخصية قيادية تعتقد بأن الحلول التي يطرحها حلول صحيحة. فلم يكن لويد جورج وكرزون وتشرشل وكليمنصو و هوجارث وأناس آخرون من الذين يمكن خداعهم بسهولة. دعمه هؤلاء الناس بشكل أو بآخر، وذلك في خطته الرامية إلى وضع مصير العالم العربي تحت رحمة الأسرة الهاشمية الحاكمة. فلو كان كليمنصو مخدوعاً بمدى ملاءمة فيصل لحكم سوريا لما كان تشرشل غير متأثر بإخفاقه ولما أعطاه فرصة أخرى ليبرهن على تحمسه وهمته في ظل السيادة البريطانية على العراق. ومما لا شك فيه أن لورانس هو الشخص الذي جعل فيصلاً يبدو مؤهلاً لهذه المكافأة؛ وذلك بفعل ما رتبه مع الدكتور وايزمن حول إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. يمكن أيضاً أن نستشعر تأثير لورانس على تقبل الحكومة البريطانية لشقيق فيصل المدعو عبد الله ليكون حاكماً على مناطق عبر الأردن. بدى للحظة من اللحظات أن حلمه في إقامة منطقة يحكمها الأشراف تفصل السعوديين الأشاوس في الجزيرة العربية عن العالم المتحضر قد تحقق. وأن صدمة الهزيمة النكراء التي مني بها جيش الأشراف على أيدي قوات ابن سعود في عام ١٩١٩م[1] حظيت أيضاً لدى لورانس بقبول فاتر ممتعض. فنظر إليها على أنها انتصار شخصي على الملك حسين الراحل المتعنت، الذي كان دائماً -وبشكل علني- يعارض خططه في تنصيب فيصل بصفته ملكاً مستقلاً. وعندما أصبح ابن سعود أخيراً على استعداد للتعامل مع حسين وخاصة حول موضوع قيامه باغتصاب الخلافة في عام ١٩٢٤م كان لورانس قد اختفى عن

(١) معركة تربة، وقعت في ٢٥ شعبان ١٣٣٧هـ.

مسرح أحداث الجزيرة العربية، ولم يعد مهتماً في إبداء أي تعاطف مع المستبد الذي زال سلطانه وأصبح يعيش في المنفى. إذا كانت مناطق الحجاز قد أصبحت في قبضة الهاشميين بسبب حماقة الأب، فقد كان لورانس قد ضمن لأبنائه الأكثر عرضة للانقياد مكانة قوية في (الهلال الخصيب) الذي كان تحت وصاية حكومة بريطانيا العظمى. حقق ذلك الوضع للورانس ضلعاً قوياً في سياسات الجزيرة العربية، واستمر ذلك الوضع حتى هذا اليوم، لكن مع شيء من التداعي الآيل للسقوط. لا يمكن لأحد أن ينكر أن لورانس كان العامل الرئيس في خلق ذلك الوضع، ولو أنه لم يفقد الرغبة والاهتمام في تلك المسألة مباشرة بعد أن أنجز مهمته لما كان لديه أي سبب يجعله غير مسرور بما صنعته يداه.

على أية حال فإن الدنغتون يميل وبشكل مفاجئ لوجهة النظر العامة التي تقول بأن لورانس كان المخطط الأساسي للثورة التي شهدتها الجزيرة العربية. لكن الحقيقة هي أن للورانس دوراً صغيراً أو معدوماً في المراحل الأولى من تلك الحركة التي أدى فيها السير رونالد ستورس الدور الرئيس باعتباره اليد اليمنى للسير هنري مكماهون. كان ستروس الشخصية التي أشرفت على كافة المفاوضات المعقدة مع الشريف حسين ومع ابنه عبدالله خلال فترة بدأت قبل الحرب العالمية الأولى وتعاظمت حتى بلغت حد الأحداث الدرامية التي حدثت في صيف ١٩١٦م في جدة ومكة والطائف. والحقيقة أيضاً أنه تلا تفتح حركة التمرد فترة ركود وذبول. وقد جاء على لسان الدنغتون أنه: «لسوء الحظ أن التمرد لم يؤثر على الحامية الموجودة في المدينة». وحدث في تلك المرحلة أن ظهر لورانس على مسرح الأحداث وبشكل مؤثر، إذ قام بأول زيارة له لفيصل في الحمرا في الثالث والعشرين والرابع والعشرين من شهر أكتوبر (تشرين أول) عام ١٩١٦م. وعده

فيصل في تلك الزيارة بأن يحقق له كل مـا أراده. ونفترض هنا أنه فعل ذلك بعد الزيارة التي قام بها إلى القـاهرة التي عاد منها ليتحدث إلى فـيصل في أوائل شهر ديسمـبر (كـانون الأول). أما بقـية القصـة فمـعروفة بمـا فيه الكفـاية، لكن من الضـروري فقط أن نقـدر حجم الإنجـاز الذي حقـقه لورانس هذا الذي يحـاول الدنغتون جهده أن يقلل من شأنه.

هناك شيء واحـد أكيـد، وهو أن لورانس كـان الشخص الذي رشح فـيصـلاً ليكون الزعـيم المناسب لتلك الثـورة، والفرضـية في ذلك أن لورانس وجـد فيـه الرجل المعـقول الذي يمكن أن يكون أكـثر تـقبـلاً للنصيـحة من عـبدالله المعـاند والمعاكس، ومن أخوة آخرين له يمكن أن يكونوا نسبـياً مشاكسين. من الواضح أنه كان من الضـروري أن تكون الشخصـية الرئيـسة في تلك الحملة من أحـد الأمراء الهاشميين، وأن يقوم العرب بإنجاز أمورهم بطرقهم الخاصة. لكن باختياره لفيصل كان لورانس قـد اختار الرجل الأفـضل الموجود ضمن المجـال المحدود الذي يصل إليه نفـوذه: وحدث ذلك ليس لأن فـيصـلاً كان قائـداً عسكرياً عظيـماً، بل لأن خلفيته السياسية كانت أكثر رسوخاً وثباتاً من خلفية عبد الله. كان فيصل أكثر من أي مرشح آخر عرضة ليصبح شخصية مـحبوبة أو مرغوباً فيها عند القبائل البدوية طالما أنه يطعمهم ويسلحهم ويدفع لهم الأموال. وفي حقيقة الأمر أثبت فيصل أنه الشخصيـة التي كان لورانس يتطلع إليها، كما أنه ممـا لا شك فيه أن لورانس كان الشخصية التي وجهت تلك الحملة.

يقول الدنغتون: إن السحر والفتنة اللتين حظيت بهما شخصية لورانس لم تكونا موجودتين قبل الحرب على النحو الذي كانتـا عليه بعد الحملات الدعائية التي قام بها لويل تـوماس، ومن المحتـمل أن لورانس في أوائل عهـده كان رجلاً خـجولاً

وأخرق في مجتمع غير ملائم لطبعه ومزاجه؛ وهذا بالتالي خلق انطباعاً سلبياً خاصة عند كبار الشخصيات بسبب ما بدى عليه من غرور إلى حدٍّ مستهجن تجلى في شخصية شابة يفترض أنها عديمة الخبرة والتجربة. وبالطبع كان للورانس عدد من الأعداء الذين لم يكن لديهم -وعلى أي صعيد- أي شيء طيب يقولونه عنه، لكنني أشهد بسحر شخصيته الذي لمسته في لقائي الأول معه في جزيرة كريت في صيف عام ١٩١٩م وذلك قبل عرض فيلم بعنوان (محاضرة مصورة عن رحلة). وبالمناسبة أقول: إن لورانس لم يكن يعرف عني سوى أنني مبعوث من وزارة الخارجية، كنت في طريقي إلى القاهرة. ربما يكون ذلك الوضع هو الذي جعله متحيزاً ضدي، ولكن من خلال حديث طويل عن التطورات التي حدثت مؤخراً في الجزيرة العربية سارت الأمور بيننا على ما يرام إلى أن خطر بباله أن يسألني عن حقيقة أمري ومن أنا. لم يدهشني فقط حسن أخلاقه، بل اندهشت أيضاً من تمكنه من الموضوع الذي كنا نتباحث فيه. عندها اقتنعت بأن معظم الناس الذين يقابلونه للمرة الأولى يمكن أن يندهشوا من حسن أخلاقه وأسلوبه الودي باستثناء أولئك الذين تحيزوا ضده دون سبب وجيه.

لم يكن السحر في شخصية لورانس هو الذي دفع به ليكون في مقدمة مسرح الأحداث، إن ما فات الدنغتون وما أخفق فيه كل الذين أطروا عليه هو حقيقة أن لورانس كان عبقرياً، ولا يمكن الحكم على شخصيته بالمقاييس التي تنطبق على الأشخاص العاديين. ومثل آنل كوكويلنز في مسرحية روستاند كان لورانس موجوداً في كل مكان، وكان في كل مكان يتواجد فيه يقف متشامخاً واضحاً جلياً. وكان يتصدر أي مجموعة يتواجد بينها ولم يكن بحاجة إلى عناء ليثبت وجوده. ومهما كان لورانس راغباً في أن يكون محجوباً عن الأنظار ونائياً بنفسه

عن الأضواء تغلبت عليه شخصيته وفرضت نفسها على حقيقتها المتميزة بهاتين السمتين. فقد كان الروح التي تحرك كافة المجالس والأمور التي يشارك فيها. ومهما حاول أن يكون عكس ذلك نجده عاجزاً عن الهروب من حقيقة ذاته. كان هناك دائماً شيء يميزه عن أصدقائه، سواء في أكسفورد أو في الجزيرة العربية أو في ساحات الثكنات العسكرية. يمكن أن يكون ذلك الشيء السمة العبقرية التي يتميز بها، وكانت تدفعه دائماً ليترك بصمته على مجريات أحداث العالم بشيء أشبه بإنجاز جبار هائل.

وبغض النظر عما يمكن أن يقوله عنه منتقدوه، فلا يمكن الشك في الدور الذي لعبه لورانس في ثورة الجزيرة العربية، لكن التاريخ سيقلل من شأن العمليات التي أسهمت في فوز الحلفاء بالحرب. سوف لن تترك السنوات الخمسون الأخيرة من عمره -والتي قضاها في شهرة وسط عناء الانضباط العسكري- أي أثر على تاريخ العالم. لم تكن السنوات الأولى من عمله الأكاديمي المتعلق بعلم الآثار أشبه بحصان حمله للبحث عن عمل أو مهنة ما. لم يكن خبب حصانه ذا جدوى غير أنه دل على النمط الذي نهجه ذلك البطل. ماذا إذا بقي لعصور التاريخ ولأساطيره؟

ومن المؤكد أن (أعمدة الحكمة السبعة) ستبقى على كافة العصور بمثابة الصرح التذكاري الذي يشهد على عبقرية رجل وحيد يناضل بمصير أشبه بمصير أديسيوس الذي عانى الكثير من الصعاب والأهوال: كتب أديسيوس قصته بأمانة وبراعة وبجدارة الشخص الذي سبق له أن جرب كل تقلبات الحياة. كان بيته الفارغ ينتظر عودته، لكن روحه التي لم تعرف السكينة وجدت مستقراً وراحة لها في موت عنيف جاء على النحو الذي كان يتمناه. كانت (الأعمدة السبعة) مثله الأعلى

الممجد لتجربته في الجزيرة العربية. تقدم رواية (حلوى النعناع) لفيفاً من المغامرات الروحانيـة التي جهد في البـحث عنها، وتحملهـا بجلد ورزانة، وذلك في خضم أكثر الأحوال رتابة وكآبة في موطنه. ستحكم الأجيال القادمة عليه من خلال هذه الأعمـال، لكن لا بد أن يكون قـد انقضى على إطراء رفـاقه له أو خبـث أعدائه تجاهه زمـناً طويلاً. قد تدل هذه الأعـمال على أن لورانس كـان في الحقبـة التي عاشها من عمـره البطل المناسب في طبقته الاجتماعية، وهذا مـا كان الدنغتون قد أشار إليـه في آخر وأجمل جملة من كـتابه. ولعل الدنغتـون أضاف إلى ذلك أن زمن لورانس وطبقـته الاجتماعـية أسهمت في إحـياء الجائحة الكبـرى في سجل أحداث تاريخ الإنسان.

لا يقر الدنغتون بـالخصال الواردة في منجزات لورانس الأدبية الرفيـعة المستوى. وهو بهذا يحكم على نفـسه بأن له رأياً متحـيزاً يهدف إلى إصدار حكم خـبيث لا يمكن لأي قاض عـاقل أن يصادق على طرحه. يـجب أن لا يترك ذلك الحكم دون الرد المناسب عليه. إن المشـكلة التي تواجه أصدقـاءه المعنيين بشكل مباشـر بالدفاع عنه هي أنهم أو معظمهم التـزموا في أوقات مختلفة بالتـصريحات والروايات التي تصدر عنها رائحة الزور والحماقة. يجب الإقرار بأنه كان بمقدور الدنغتون أن يكون لنفسـه رصيداً جناه من هذا الموضـوع غير المنطقي الذي اسـتخدمـه في نسيج هذه القضية الـتي انهارت تحت الضغوط المتزايدة التي فرضت على سـذاجة الناس. كان من الصعب على من مدحوا لورانس أن يتراجعوا عن مبالغاتهم في الإطراء، خاصة بعد أن نشرت وأصبح لا خيار لهم سوى أن يعـانوا بصمت؛ لأن سخافاتهم كانت قد انكشـفت بشكل لا يرحم. وعليه أصبح هناك القليل من الناس الذين يـعرفون لورانس، ويعـرفون النشاطات الـتي قام بها، وهؤلاء الـناس لم يسهمـوا في نسج الرواية التي تهدف إلى إخفاء عظمة بطلها بدلاً من إظهارها أو الكشف عنها.

يجب أن يدافع عن هذه القضية مراقب حيادي على اطلاع بأحداث تاريخ تلك الفترة، وبالدور الذي أداه لورانس. لا يجب أن يكون هذا المراقب مشايعاً أو مناصراً لهذه القضية.. لكن أين هو ذلك الشخص؟

إن هجوم الدنغتون على لورانس ووصفه إياه أنه مخادع دجال؛ جعلني أنضم إلى قائمة المدافعين عن كرامة لورانس. وهنا يمكنني القول: إنه لم يسبق لي أن كنت عضواً في ما يسميه الدنغتون (رابطة لورانس) كما لم أسهم أبداً في كتب المدح والتأبين التي نشرها أصدقاؤه. إن المقتطفات التي أشار إليها الدنغتون في كتابين من كتبي ما هي إلا أفكار تتعلق بحقائق فترة زمنية كنت خلالها على معرفة جيدة بنشاطات لورانس. لقد كنت معارضاً قوياً لأفكاره المتعلقة بتسوية سياسية مناسبة للعالم العربي، كما قاومت وبكل قوتي خطته في تنصيب فيصل ملكاً على العراق، كما أنني غادرت البلاد بعد أن فاز لورانس في تلك الجولة. كان لورانس قد اقترح شخصياً بأن أخلفه في منصبه بصفتي كبيراً للممثلين البريطانيين في مناطق عبر الأردن؛ لكي أقدم النصح إلى الأمير عبدالله في أمور ترتيب مملكته المستقلة حديثاً. لكن ثلاث سنوات من الجهد كانت كافية لتقنعني بأن تلك المهمة كانت غير ذات جدوى. وبعدها توجهت إلى قفار الصحراء دون أن أعود إلى هناك. كنت مقتنعاً بأن فكرة لورانس في دعم العرب الأشراف بالسلاح البريطاني وبالأموال لن توصل العرب إلى شاطئ الخلاص.

استمرت اتصالاتي الشخصية مع لورانس على نحو متقطع، وعلى مدى بضع سنوات تلت لقاءنا الأول في كريت الذي حدث في شهر حزيران عام ١٩١٩م. حدث خلال ذلك أن رافقته بشكل متواصل وعلى مدى شهر كامل إثر تحملي عنه مسؤولياته في جولة عبر مناطق الأردن. على إثرها كانت المراسلات تتم بيننا على

نحـو محـدود، لكن لم يتم نشر أي من تـلك الرسائل. لم يكن لديَّ أي سـبب يحملني على أن أحب لورانس باستـثناء أنه كانت له شخصية محبـبة ساحرة، وأنه كان متفهماً للأمور. كانت آراؤنا السياسية مختلفة كاختلاف الطباشير عن الأجبان: كنا نتناقش حولها دون حمق أو فظاظة. ربما على الصعـيد الفكري كان بيننا الكثير من التشابه، لكن لم يكن بيننا أي تشابه أو اتفـاق في النواحي الجمالية أو الفنية.. فقد كان لورانس فناناً صرفاً بينما كنت أنا بعيداً عن ذلك. وعلى الصعيد الظاهري شعرت بالراحة في معسكر مناهضيه أكـثر من شعوري بالراحة في معسكر مؤيديه، لكن الحقيقة كانت عكس ذلك، وهذا ما يؤكده الفصل الذي بين أيديكم.

إنني معجب بشـخصيته دون تحـفظ. كنت أحسده للانتصار الذي حـققه على حسابي لكنـه لم ينكر علي انتصاراتي؛ ولذلك دخلت تلك القائـمة للمرة الأولى لأدافع عن كرامـة رجل لم يعد بإمـكانه الدفاع عن نفـسه، كمـا أن أصدقـاءه قد أصبحوا عزلاً من السلاح بسبب حماسـهم غير المتعقل. إن ما حملني على الدفاع عن لورانس كان الهجوم المشين الذي شن على سمعته وذكراه حيث كان قيد النشر على شكل مقـالات في الصحف. لكن عندما وصلت تلك المقـالات إلى بريطانيا كانت أسوأ مراحل العـاصفة قد خدمت نتيجة للهـجوم المضاد العنيف الذي نشرته الصحف ضد الدنغتـون، وضد دور النشر التي كانت تصدر كتـاباته. لقد حسمت المعركة، ولم يعد من المجدي جلد الحصان المحـتضر. على أية حال كانت المقالة، في مقياس الذوق الراهن، طويلة جداً واكتفيت بحقيقة أن أصدقاء لورانس واجهوا تلك المقالة بما هو مناسب تماماً، ومن بينهم أذكر الراحل: رونالد ستورز، والكابتن ليديل هارت وكلاهما كانا نصيرين فاعلين في أسطورة لورانس. اقترحت -وقوبل اقتراحي باسـتحسان عام- أن يتم إدراج مـقالتي في كتاب السيـر الذاتية الذي كان

قيد التأليف. في تلك الأثناء ظهر كتاب في أكشاك الكتب بعنوان «الجزيرة العربية والنجوم» لمؤلفته فلوار أرميتج، وهي من الرعايا البريطانيين المقيمين في نيويورك، وكانت تعمل لصالح مكتب المعلومات البريطانية. يقال: إنها قضت عشر سنوات في إعداد ذلك الكتاب، وأن الطريقة التي تناولت بها موضوع الكتاب أسهمت في تقديم الجرعة الشافية والمضادة للغازات السامة التي كانت تنطلق من صفحات كتاب الدنغتون. وفي إحدى الرسائل التي بعثت بها لصديق لي كتبت تعليقاً على ذلك الكتاب جاء على النحو التالي:

«أعتقد بشكل عام بأن الكتاب مخيب للآمال، علماً بأنه ليس بالكتاب الرديء على كافة المقاييس مثل رداءة كتاب غريقرز والدنغتون. أعتقد أن الكاتبة طوحت بالموضوع عالياً وعلى نحو أكثر من المدى التقليدي الذي سلكه من مدح لورانس من قبلها، وأعتقد أنها تبالغ في حادثة منطقة درعة، إذ تقول: بأنها كانت سبباً في تردي رتبته. ولا يبدو أن الكاتبة تتجول بنزاهة بين أحداث سكايلا وتشاري بدز التي تتعلق بموضوع العجز والشذوذ الجنسي، كما أنها تفتقر إلى الدليل والبرهان على أيٍّ منهما. ويبدو أيضاً أن الكاتبة تتعرض لموضوع النغولة -فساد النسب- بشكل مؤثر تماماً. وأعتقد أن المجال الذي أخطأت فيه هو أنها أكدت على فكرة حتمية الأقدار، إذ قالت: بأن كل الأعمال التي قام بها لورانس في صباه كانت تقوده باتجاه ما قضاه من عمره في الصحراء العربية، كما أن كل أعماله اللاحقة كانت تشير إلى حتمية تلك المرحلة. على أية حال يعجبني أن الكاتبة قدمت دراسة مفصلة عادلة عن الأمور التي تعني لورانس، علماً بأنها تصدق بعض الأمور وتأخذها على محمل الثقة.. -ومثال ذلك عرض المفوض السامي البريطاني في مصر- وقعت الكاتبة في بعض الأخطاء التي يمكن إيجاد مبرر لها.

ففي الصفحة ١٥٥ على سبيل المثال تقول الكاتبة: بأن لورانس وصل إلى مصر على متن إحدى العربات المكشوفة، علماً بأنه في الواقع لم يصل إلى مصر أي من هذا النوع. قابلت لورانس للمرة الأولى في كريت وكانت قد انقطعت به السبل لكنه لم يكن ضالاً لطريقه، بل غادرها متوجهاً إلى القاهرة على متن طائرتي. على أية حال يمكن القول: أن كتابها هو واحد من أفضل الكتب التي كتبت ونشرت عن لورانس.. وهو كتاب جيد لكنه ليس بالكامل والخالي من العيوب».

وكما أشرت سابقاً كنت أقوم باتصالاتي مع لورانس نيابة عن الآخرين، لكن لم يخطر ببالي وأنا أستعرض مذكراتي اليومية التي تعود لتلك الأيام أنه كوني الآن قد دخلت قائمة المدافعين عن لورانس ضد نقاده، يتوجب علي أن أقدم لقرائي فكرة عن الظروف التي عملنا فيها لفترة قصيرة مع بعضنا في منطقة الشرق الأوسط. ففي يونيه (حزيران) من عام ١٩١٩م تقابلنا في كريت وطرنا منها إلى القاهرة حيث دخلنا في جدال حول أمور متعارضة، وكان ذلك في منزل الجنرال اللمبي الواقع على ضفاف النيل.

ظننت بأنه يمكن أن يكون لورانس مستضيفي لو أنه قبل ذلك العرض! وظننت أن مصر في تلك الفترة يمكن أن تكون مستقلة بدلاً من أن يتوجب عليها أن تنتظر حوالي أربعين عاماً لنيل استقلالها. ومن هناك توجهت إلى جدة وعاد لورانس إلى إنجلترا حيث اجتمعت به مرة أو مرتين في مناسبات اجتماعية محضة، وبعدها غادرت إنجلترا برفقة السيد بيرسي كوكس مندوبها إلى بلاد ما بين النهرين. في تلك الأثناء أصبح لورانس الصديق المخلص لـ ونستون تشرشل الذي كان يشغل منصب وزير الخارجية لشؤون المستعمرات. هذا؛ ورتبنا فيما بينهما مؤتمر القاهرة الذي عقد في شهر مارس (آذار) من عام ١٩٢١م. أسفر ذلك المؤتمر عن تنصيب الأمير فيصل

على عرش الحكم في العـراق بشكل يتعـارض مع الوعد الذي حصل عليـه الشعب العـراقي بأن تكون له الحرية المطلقـة في اختـيار شكل حكـومته، واختـيـار رئيس لدولتهم. استقلت من منصـبي بصفتي مستشاراً لوزارة الداخليـة -وكوزير مفوض- منذ أن تم ترحيل سعيد طالب بسبب إعلانه عن مـعارضته لمجيء فيصل، وغادرت بغداد لقضاء عطلة ثلاثة أشهـر في إيران، وهي الفترة التي بقيت على ولادة زوجتي لطفلنا الثالث، وكانت ابنتي باتريسيا تشغل منصب مديرة في قسم الخدمات المدنية.

ومع نهاية شهر أكتـوبر (تشرين الأول) لم تكن ابنتي قد وصلت إلى بغداد عند عودتي إلـى هناك وكان من الواضح أن ابنتي وزوجـتي كانتـا غير قـادرتين على السفر بسبب ولادة طفلنا الثالث. افترضت بأنه كان يتوجب عليَّ العودة إلى عملي في إدارة الخدمـة المدنية في الهند وذلك مع انتهـاء إجازتي. لكن لم أكن أعلم بأن بعض الأشخـاص كانوا يفكرون بمستقـبل عملي وعلى أصعدة مـختلفة تمامـاً عما كنت أفكر به. كانت في تلك الفـترة إمارة عبر الأردن التي تشكلت حـديثاً بفعل مؤتمر القاهـرة - كونها إقطاعيـة من حق الأمير عبدالله الأخ الأكبر لفيصـل- تمر بأوقات عصيـبة بسبب عدم موافقـة الفرنسيين عليها. إذ كان الفـرنسيون في ذلك الوقت يحـتلون سـوريا. وكـان قـد أسند إلى لورانس وبشكل مـؤقت منصب الممثل البريطانـي الرئيس الذي خلف فيه إبرامسـون الذي كان مسـؤولاً عن الخدمـات المدنيـة في فلسـطين. وبقـي في ذلك المنصـب إلى أن يتم الانتـهاء من إعـداد التـرتيبـات النهائيـة. كان لورانـس - الذي لم يكن أبداً مـتلهـفاً ليشـغل عمـلاً إدارياً بشـكل دائم- الشـخصية التي رشحت تعيـيني بصفتي بديلاً مناسـباً؛ نـظـراً لعلاقتي الحميمة مع ابن سـعود والتي برزت على أرض معركـة تربة في عام ١٩١٩م. كان ذلك اقـتراحاً مؤذياً خـبيثاً لكنه حظي بـقبول

الجهات المعنية شريطة أن يكون عرضة لسلسلة من الدراسة والتدقيقات. وما إن عدت إلى بغداد حتى قام السير بيرسي كوكس بالاتصال بي على الهاتف وطلب مني التوجه إليه. وهناك قدم إليَّ عرضه وقال: إنه يمكن التغلب على العقبات التي يتوجب عليَّ مناقشتها في اللقاءات المقررة لي. قبلت ذلك بشرط أن يتم التعامل مع الأردن على أنه بلد مستقل متحرر من السلطة القيادية في فلسطين. وفي الواقع تم تصور تلك الترتيبات بمبادرة تقدم بها لورانس. لم أمانع في العمل بصفتي ممثلاً عن السير هيربرت صامويل بصفته المفوض السامي على مناطق الأردن، إذ كان موكلاً إليه منصب المفوضية السامية في فلسطين.

ولم يمض وقت طويل حتى تم نقلي جواً إلى عَمَّان وهناك اجتمعت بلورانس وتوجهنا إلى معسكر خيام الأمير عبد الله الذي بدى وسيماً وذكياً. أحسست بأنه كان يحسب إلى أيّ مدى يمكنه إقناعي بالعدول عن ولائي لابن سعود المشهر به. على أية حال اجتزت ذلك الامتحان بشكلٍ مرضٍ، وفي اليوم التالي سافرت براً إلى القدس، وهناك وجدت السير هيربرت صامويل يتصرف معي بشكل ودي كما أنه كان متلهفاً للحديث مع أي شخص يمكنه أن يساعده في توجيه الأمير عبدالله إلى وجهات معقولة. بعدها سافرت جواً إلى لندن لأقابل ونستون تشرشل الذي شرح لي رأيه بوضوح بارع وصادق بخصوص قرار تعييني ممثلاً بريطانياً سامياً في الأردن. وبهذا تغلبت على كافة العقبات وعدت إلى القدس مع نهاية شهر تشرين الثاني لمناقشة التفاصيل مع السير هيربرت صامويل ومستشاريه. ومما آسف له أنني أهملت أمر كتابة مذكراتي اليومية خلال هذا الشهر، ويعود السبب في ذلك لتنقلي المتكرر وانشغالي بأسرتي وبقضايا أخرى خلال إقامتي في لندن. لكنني عاودت كتابة يومياتي بدءاً من الثامن والعشرين من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٢١م على النحو التالي:

«عقد المفوض السامي البريطاني السير هيربرت صامويل في صباح ذلك اليوم اجتماعاً حضره السيد وندام ويدرز -الأمين العام للشؤون الداخلية- والسيد ريتشموند -مساعد الأمين العام- ورونالد ستورز -حاكم القدس- وإبرادسون - الممثل البريطاني السامي في الأردن، الراحل- كما حضره لورانس وحضرته أنا شخصياً. دار النقاش حول موضوع الأردن وموضوع السياسة المستقبلية الواجب تبنيها بذلك الخصوص. كان لورانس يتحدث طيلة وقت الاجتماع ويقرأ النقاط واحدة تلو الأخرى، كما تقدم بمقترحات معينة كان المفوض السامي البريطاني لشؤون المستعمرات قد طرحها على وزير الخارجية. لم يتمخض الاجتماع عن أية نتائج نهائية حاسمة ولم أعرف شكل التمثيل الذي سيقوم به المفوض السامي البريطاني باستمرار لعمل سلفه. كان كافياً بالنسبة لي أن أراقب لعبة تصارع العواطف التي أثارتها الملاحظات التي تقدم بها لورانس».

عند مرحلة معينة من النقاش قال المفوض السامي، الذي كان الانزعاج واضحاً عليه، بأن الملاحظة التي تقدم بها لورانس كانت مختلفة تماماً عن وجهات النظر التي أعرب عنها قبل أسبوع. عندها أجاب لورانس قائلاً دون انزعاج: «نعم ذلك صحيح ولكنني غيرت رأيي». كان واضحاً لي، حتى أثناء وجودي في لندن، أن تلقي تعليماتي من السيد تشرشل دل على أنه كانت في اللحظات الأخيرة تمارس بعض التأثيرات والضغوط للحيلولة دون الموافقة على أن يكون الأردن بلداً مستقلاً بقيادة الأمير عبدالله. لكن لورانس كان يعمل وفق التوجهات التي سبق أن أشرت إليها، وكان من الواضح أيضاً بأن وجهات نظره كانت ستنتصر. وفعلاً انتصر لورانس وكتبت في مذكراتي: «غادرت الاجتماع ولدي انطباع بأن الاجتماع لم يسفر عن نتائج محدودة. ويكفي القول بأن الإحساس العام تجسد بأن عبدالله

سيدير شؤون الأردن ولن يتم إرسال مسؤولين بريطانيين إلى الكرك وعجلون اللتين سبق أن سحبت بريطانيا منهما ممثليها. وحسب ما أتذكر فقد كان ديدز ويتثموند يؤيدان فكرة وجود إدارة بريطانية في الأردن. لكن المفوض العام سبق أن أطلعني بأنه لا يؤيد مثل ذلك الحل. وأصبح لورانس -الذي كان من عهد قريب مقتنعاً بضرورة التخلص من عبدالله- يفكر بأنه يمكن إعطاء نفس آخر للنظام القائم في الأردن. وكانت تلك ظاهرة كافية لإثبات وجهات نظري. لكن لورانس اعتقد بأن الحكومة المحلية ستوافق في نهاية المطاف على وجود ممثل بريطاني في منصب قيادي تنفيذي يمثل قوات الاحتياط ورجال الجندرما (الشرطة). ويمكن أن يسند إليه منصب مدير الأمن العام لكن بشكل أرفع مع احتفاظه بمقعده في الحكومة. واعتقد لورانس أيضاً أن حكومة الأردن ستسلم الأشخاص المسؤولين عن الهجوم الذي حدث مؤخراً على الجنرال غورود بالقرب من الحدود السورية خاصة وأن شخصية هؤلاء الأشخاص أصبحت معروفة».

انتهى الاجتماع وغادرت أنا ولورانس القدس عصر ذلك اليوم متوجهين إلى عَمَّان التي وصلناها بعد غروب الشمس. وفي الطريق كنا قد توقفنا في مدينة رفح القديمة لنلقي نظرة على الحفريات التي قام بها علماء الآثار الألمان قبل الحرب. وبعد أن عبرنا جسر اللنبي باتجاه الضفة الغربية من الأردن قلت للورانس: «أعتقد بأننا الآن أصبحنا في الجانب الحقيقي من الأردن». قال لورانس: «نعم. ويمكنك أن تستخدم ذلك المصطلح كعنوان لكتابك الجديد». لقد كانت تلك المنطقة على انخفاض بلغ ألف قدم عن سطح البحر، وكان الطقس مختلفاً تماماً عن طقس مرتفعات القدس في شهر نوفمبر (تشرين الثاني). ودل على صحة ذلك رائحة مزارع البرتقال وأشجار الموز. توقفنا لتبريد عجلات سيارتنا في جدول صغير في

منطقة شط نمرين التي كانت بالقرب من مخيم قـوات حرس الاحتياط بقيادة هويز الذي كان البريطاني الوحيد المساعد للباشا الذي قـابلته بعد فترة وجيزة في عمان. كان هويز في رفـح يحاول حل مشكلة نـقل ستة وثلاثين كـيسـاً من المؤن لرجال فرقتـه عبر النهر دون أن يتـرك أيَّ أثر يدل على مناطق عبوره. وخلال سـيرنا في أعالي الوادي المؤدي إلى ممرات جبـال مؤاب لفت لورانس نظري إلى الدمار الذي خلفـته مدافع البـحرية التـركيـة والمعروفـة باسم بيرش العظيـمة والتي كـانت قد استخـدمت لقصف المواقع البريطانيـة في بيت هاني. كما، كان الأتراك قـد ألقوا بتلك المدافع إلى أسـفل النهـر وهم يحاولون الـهروب من مطاردة قـوات الجنرال اللنبي لهم. مررنا أيضاً بمدحلة كانت تمهد طريقها من فلسطين مروراً بسهول مؤاب لتشارك في تحسين أحوال ذلك الطريق. وفي أطراف ذلك المرج اعتاد أطفال منطقة السلط أن يقذفوا كافـة السيارات المارة بالحجارة لكنهم كفوا عن تلك العـادة السيئة بسبب التـوجيهات التي تلقـوها. وهكذا مرت سيارتنا دون أية إصـابات علماً بأن أحد الأطفـال آثر أن يضع غصن شجرة في منتـصف الطريق ليستـمتع بالنظر إلينا ونحن نمر من فوقه.. لكن خابت آماله عندما اجتزناه دون مشاكل.

وعندما كنا نمر في مناطق السـلط كان الظلام قد بدأ يخيم على المنطـقة. وكان الطريق الخلفي في قرية الصويلح رديئاً للغـاية علاوة على أن أنوار السيارة التي كنا نركـبهـا كانت رديئـة أيضاً. وصلت إلى عـمان بـسلام ونزلت في بيت بيك بيـه بالقرب من المـسرح الروماني الرائع، وكـان من المقرر لي أن أبقى هناك حـتى يتم ترتيب مقر إقامتي الرسمي بعد رحيل إبرامبـسون ولورانس اللذين ملأت أمتعتهما وأمتعة أحد الموظفين العرب الكوخ الصغيـر الذي كان مقراً لممثل صاحبة الجلالة. وعليه اتخذت قـراراً للبحث عن مكان أفضل لأعيش فيـه مع أسرتي عندما تنضم

إليَّ. لكن عَمَّان كانت في تلك الأيام أفضل بقليل من مجرد قرية. حدث أن كان المنزل الوحيد المناسب لي مشغولاً من قبل سمو الأمير عبدالله نفسه. فاستبق عبدالله الأحداث وقرر إخلاء المنزل لمصلحتي والعيش بشكل مؤقت في أحد المعسكرات إلى أن يتم بناء منزل واقع على إحدى مرتفعات القلعة وهو منزل يتناسب مع وضع حاكم دولة مهمة.

كان بيك في تلك الفترة المفتش العام لقوات الاحتياط التي سميت فيما بعد باسم الفيلق العربي والتي كان قوامها قوام فرقة عسكرية، إذ كان يصرف عليها سنوياً ما يقارب من ١٥٠ ألف جنيه، تجبى من الضرائب التي يدفعها المواطن البريطاني للدولة. أما مساعد هويز الذي تعرفت على شخصه أصبح مع مرور الأيام مساعداً خاصاً لي. كان هذا المساعد قد تلقى تدريبات في القدس في مجال العلوم الإدارية، وكانت هذه الشخصية على علم باللغة العربية إذ كان قد قضى طفولته في مصر مع والده الذي كان يعمل في مصلحة جمارك الدولة. وكان أخوه الأصغر آلن معروفاً باسم برايد، أما هو فكان يدعى آليك ويعرف باسم كيرك. وبسبب أخبار مفادها أن بريداً جوياً كان قد وصل خلال ساعات النهار توجهت بعد العشاء ومعي لورانس وبرايد إلى محطة آر، إيه، إف لزيارة الكابتن غوردون الذي كان يشغل منصب القائد المحلي وزيارة المارشال الجوي بورتون الذي كان قد وصل من بغداد ومعه أخبار سارة عن أسرتي وعن الأوضاع السياسية المحلية. كان بورتون في طريقه إلى مصر، وكان مقرراً أن يتوجه إليها في صباح اليوم التالي. ودعته وذهبت إلى منزل كبير الممثلين البريطانيين، وهناك وجدت إبرامسون يحزم أمتعته استعداداً للرحيل، وعلى الرغم من أن لورانس كان قد أعفاه من الإشراف الفعلي المباشر على شؤون مناطق عبر الأردن إلا أنه استمر حتى ذلك الوقت في

إدارة شؤون ذلك المنصب لكن بشكل اسمي. اشتريت من إبرامسون بعض قطع الأثاث مقابل ثلاثين جنيهاً إسترلينياً، كما استخدمت أنا شخصياً كافة ما كان في مكتبه بما فيها الأضابير واستفدت من خدمات الموظف السوري الذي كان يعمل معه ويدعى أسعد أفندي. ومن بين ما ورثته عنه أيضاً كانت سيارة فورد التي سافرت بها برفقة لورانس إضافة إلى عربة أخرى مشابهة سخرناها لخدمة البريد. كما ورثت عنه أيضاً حصاناً وبغمه لجام حديدي.

وفي ساعة متأخرة من ذلك الصباح توجهت أنا ولورانس وإبرامسون إلى مقر إقامة الأمير عبدالله الذي كانت تزين بوابته كولبتين للحراسة مدهونتان بالألوان الخاصة بالأشراف الأمراء. وبعد المجاملات المعتادة في الجلسات العامة قادنا الأمير إلى مقر خلوته، وهناك قدمت له أوراق اعتمادي التي كانت على شكل رسالة موجهة إليه من السير هيربرت صامويل التي تؤكد تعييني بصفتي رئيساً للممثلين البريطانيين، كما تؤكد على أن انتهاء خدمات إبرامسون ستتم عند تنازله عن منصبه. ودارت المحادثات التي بدأت قبل وخلال الغداء السخي الفخم واستمرت بعده على نحو عام. تعرفت خلال تلك المناسبة على بعض شخصيات الجهاز الرسمي الذي يعمل مع الأمير ومنهم: عادل أرسلان السكرتير الأول وحميد باشا -مدير العلاقات الدبلوماسية- وعوني بيك -المستشار السياسي-. تناقش الأمير مع لورانس في الأمور التي كانت مطروحة أمامهما، وكان الموضوع الرئيس في تلك المباحثات هو استيلاء ابن سعود على منقطة حائل خلال صيف ذلك العام. وبددت الأعمال البطولية الفذة التي أنجزها المحاربون على ظهور الخيل عتمة الظلمة بفعل سمعة السعوديين الكبيرة.

وفي عصر ذلك اليوم وبعد أن تناولنا الشاي في القاعدة الجوية مع غوردون وعدد من ضباطه، توجهت مع لورانس باتجاه محطة سكة الحديد، وهناك تعرفت على بل وهو من أحد سكان مدينة فيلادلفيا الأمريكية. كان الحظ قد دفع به ليشغل منصب مدير محطة سكة حديد الحجاز وذلك من منطقة درعا على الحدود السورية وامتداداً باتجاه الجنوب. وفي الطريق توقف لورانس ليوبخ مجموعة من العمال الذين كانوا قد أبدوا مؤشرات تدل على نيتهم في الإضراب لسبب ما. وفي التاسع والعشرين من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٢١م -وكان ذلك أول يوم لي في العمل الرسمي- كتبت في مذكراتي أقول:

«تركت كل الأمور للورانس الذي وجد أنه ليس بإمكانه أن يجرد نفسه من كافة مسؤولياتها على الرغم من تأكيداته المتكررة بأنه سلم قيادة إدارة الأمور الرسمية لي. كان عليه أن يستمر في تلك الأعمال طالما أنه موجود هناك. وكنت مسروراً جداً في أن أراه يقوم بذلك. إنه شخص بارع، كما أنني معجب بأساليبه العملية ولو أنه لا يبدو عليه الطابع المهني. ذكر بل في أحد تقاريره بأن بعض العرب أطلقوا النار على القطار بين منطقة النسيب والمفرق في المنطقة الشمالية، وعليه قام لورانس بترتيب دقائق الأمور المترتبة على ذلك الحادث والتي تمخضت عن ضرورة أن أقوم مع لورانس ومعنا عربتان مصفحتان بمرافقة قطار يوم الجمعة المتوجه إلى المفرق. وبالفعل ذهبنا إلى هناك وجلنا المنطقة وتحدثنا إلى الرعاة الذين قاموا بذلك العمل والذين كانوا -على ما يبدو- من قبيلة بني خالد. وناقشنا أيضاً تفاصيل أمور ترميم سكة حديد القطار بين محطة الأحساء ومعان، كما اتفقنا على أن تقوم (المدحلة) برصف طريق المطار.

وفي بيت بيك اجتمعنا بمضر الذي كان يشغل منصب رئيس الإدارة المحلية، كما اجتمعنا بالسيد عادل أرسلان وإبرامسون إذ كانوا يناقشون أعمالهم مع بيك شخصياً. كنت في تلك الأثناء أعاني من صداع خفيف لم يمكنّي من المشاركة الفاعلة في تلك المحادثات. وهناك تقدم عادل وسلمني جواب الأمير المتعلق برسالة المفوض السامي التي كان على إبرامسون أن يأخذها معه في صباح اليوم التالي. كما سلم عادل إلى إبرامبسون علبة سجائر فضية هدية من الأمير للمدة التي قضاها في العمل في الأردن. وقبل أن أذهب إلى الفراش قرأت وصف الروائي داوتي لرحلته التي قام بها في تلك المنطقة، كما قرأت بعض صفحات كتاب (الهجرة الجماعية) -ثاني أسفار العهد القديم- وذلك لأنشط ذاكرتي ببعض الأحداث التاريخية».

وفي مذكراتي أيضاً كتبت التالي: «ظللت مستمراً في إعفاء نفسي من الأعمال باعتبار أن لورانس كان يقوم بها على الرغم من قوله بأنه أحالها لي. لا شيء يمكن أن يحول إنجاز تلك الأعمال لي سوى رحيل لورانس، لكن لم أكن على عجلة من أمري لأشهد رحيله. زرت مضر بيك في مكتبه خلال ساعات الصباح وتحدثت معه لمدة نصف ساعة عن الأردن بشكل عام إلى أن وصل لورانس، وعندها تحول الحديث عن مجراه. من الصعب القول: إن الكرك والمناطق المحيطة بها كانت تحت سيطرة الحكومة، إذ لم تكن تلك المناطق لتدفع الضرائب إلى الحكومة. والملاحظ أنها لن تدفعها حتى تصبح قوات الاحتياط جاهزة في شهر مارس (آذار) القادم لتفرض أوامر الحكومة. ربما كانت منطقة عجلون أفضل منها بقليل حيث كان موضوع الضرائب مفروضاً عليها، وكان يتم تحصيله بشكل ملحوظ. وأعرب مضر للورانس عن وجهة نظر مفادها أنه يجب أن يستمر بيك في قيادة، ليس فقط قوات الاحتياط بل، قوات الجندرما والشرطة على حد سواء؛ ذلك لأنها لم تعد خاضعة لمدير الأمن العام السيد رشدي الصفدي، بل إلى رئيس

الحكومة السيد مضر نفسه. وحسب رأيه يتوجب على الحكومة المركزية أن تضم مجلساً استشارياً برئاسته؛ وذلك لتوجيه الحكومة في ظل قيادة الأمير. وكان قد خصص من ميزانية العام القادم مبلغاً وقدره ١٥٠ ألف جنيه إسترليني لتكون تحت تصرف الحكومة التي سيتسع سلطانها في كل مكان. وقال: إن بإمكانه أن يبقي نفقات الإدارة الحكومية على أقل من ذلك الرقم. وبلغ المبلغ المخصص للأمير ليصرفه على قائمة الخدمات المدنية ألف جنيه شهرياً. وعند مغادرتنا سلم للورانس رسالة مقترحة ومهمة موجهة إلى المفوض السامي والتي توجز رأي الأمير بخصوص تشكيل دستور يمكن أن يكون مناسباً لأوضاع البلاد الحالية».

كما كتبت في مذكراتي أيضاً الأمور التالية:

«مع استثناء لبعض العبارات التي تستدعي الاعتراض الواضح -والتي كان السيد مضر قد وضعها بحس جيد بين قوسين- يبدو أن الوثيقة بشكل عام جيدة ولا اعتراض عليها سوى أنها تتطلب إعادة صياغة لتصبح ملائمة للسلطات العليا. ومن بين النقاط غير المقبولة والواردة في افتتاحية مقترحات الأمير كانت العبارات التالية. «بموجب الصلاحيات المخولة إليَّ من والدي الملك» وعبارة «.. بما فيها حماية حقوق الأراضي العربية بشكل عام والسورية بشكل خاص».

تم في تلك الوثيقة تصوير الأمير على أنه رئيس الدولة المعترف به والذي يجب أن تُفرض صلاحيته في الحكم على المجلس الاستشاري الذي يجب -عندما يحين الوقت- أن تتحكم صلاحيته بكافة النشاطات الصادرة عن الهيئة المنتخبة الاستشارية والتي ستتحول في نهاية المطاف إلى هيئة تشريعية. كما أقرت الوثيقة أيضاً أنه يجب أن ترفع الهيئة تقاريرها حول كافة الأمور المعنية إلى المجلس

الاستشاري حصراً والذي بدوره يمكن أن يرفعها إلى الأمير إذا اقتضت الضرورة ذلك. كما ذكرت في مذكراتي اليومية أيضاً أنه بشكل عام يمكن القول أن الوثيقة تدل على تفكير متأن وعلى رغبة في وضع الحكومة على أساس سليم، وسينقل لورانس إلى مضر مسودة معدلة عن الوثيقة التي اتفقت أنا وهو على صيغتها.

وبعد الغداء انطلق لورانس لمناقشة شؤون الدولة مع الأمير عبدالله، ولدى عودته أطلعني على رسالة سرية من الأمير موجهة إليه ويطلب فيها: أنه نظراً لزيارة لورانس المقترحة إلى جدة لمناقشة قضية فلسطين وقضايا أخرى مع الملك حسين، ونظراً أيضاً لاستيلاء ابن سعود على حائل يتوجب على الحكومة البريطانية أن تحذر ابن سعود من اتخاذ أي إجراء يتعلق بقرى الحجاز وبالقبائل التي تسكن بين جبل شمر وسكة حديد الحجاز. والقبائل المعنية تلك هي قبيلة الحويطات وبلي وجهينة والفقرا[1] وبني عطية، إضافة إلى قبائل أخرى. كما شمل موضوع القرى قرى أخرى مثل: الحناكية الحايط الحويط وخيبر وتيما. ويعتقد لورانس أن الملك لن يستمع إلى مفاوضات السلام مع ابن سعود ما لم يتخلَّ ابن سعود عن واحات الخرمة وتربة ورنية وبيشة».

كانت الأحداث تتصاعد وكانت تلقي بظلالها السوداء قبل وقوعها، وكانت تعليقاتي التي أوردتها في مذكراتي على هذه الأحداث على الشكل التالي:

«بالطبع لن يستجيب ابن سعود لمثل تلك الشروط، كما أن غياب الخط الحدودي بينهما سيؤدي برأيي إلى تثبيت أقدام ابن سعود في رنية وبيشة -والتي لم يكن السعوديون قد احتلوها بالفعل- كما سيؤدي إلى تقوية نفوذه في مناطق أخرى وبالتالي سيؤدي إلى زحفه على المناطق والقبائل التي أشار إليها الأمير في

(١) الفقرا: ليست قبيلة إنما فخذ من أفخاذ قبيلة عنزة.

رسالتـه. ويعتقـد لورانس بأنه يجب أن لا يضيع الوقت في تأمين منطقـة الجوف لتكون تابعة لحكومـة الأردن، بل يجب أن يستغل الوقت في مفاوضـة ابن سعود على الخط الحدودي المـمتد على طول الطرف الـشمالي من النفـود. وعليه اقـترح لورانس أنه عند عودته إلى إنجلترا سيرسل لي برقيـة يخولني فيها باتخاذ الخطوات الضرورية لخدمـة هذه الأمور. ولا داعي إلى القول هنا بأن فرصـتي ستكون بالغة الأهمية لمعاودة اتصالاتي مع ابن سعود».

وجاء في مذكراتي أيضاً: «أما بخصوص حدود الأردن مع الحجاز يرى لورانس أنه يجب الاستيلاء على معان التي يستولي عليها حالياً ممثل عن الأشراف وتخضع تحت إمرته قوة من الحجاز. ولهذه الغاية سيطلب من عبدالله أن يسعى لدى والده في الحصول على الصلاحية اللازمة للاستيلاء على ذلك الإقليم مباشرة بعد أن يتم إصلاح سكة الحديد وبعد أن يتم ربط معان بعَمَّان. يبدو أنه يوجد في معان جهاز لاسلكي يحتـاج إلى تصليح كما أن هـناك حاجة إلى بعض عـربات سكة الحديد وإلى بعض قطع الغيـار التي يمكن أن تثري ما عندنـا من حاجيات. يبـدو أنه كان يتم استعمال بعض عربات التـرولي الموجودة على خط سكة الحديد في معان لنقل الركاب باتجاه الشمـال والعودة بهم إلى معان مقابل أجـرة جنيه عن كل شخص. حدث مؤخـراً أن أوشك أن يصطدم عدد من هذه الترولات مع مـؤخرة قطار كان يتم تصليحه في محطة الأحساء، لكن مـا حال دون وقوع هذا الحادث كان وجود الكابتن غوردون الذي كان يقوم بجولة تفقد هناك. هرع غوردون إلى نقطة التوجيه وحول وجهة العـربات المندفعة بسرعة ستين ميـلاً في الساعة. ويمكن أن يكون من الصعب إيقـاف حركة المرور غيـر القانونية هذه عندما يتم إصـلاح الخط الحديدي لكن يمكن الاستفادة من عربات الترولي في خدمة القطارات وتسييرها باتجاه معان.

وفكرت في السفر على متن القطار التالي إلى الأحساء لتفقد سير وتقدم أعمال الإصلاح.

غادر في الثلاثين من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) كل من إبرامسون وكيرك برايد متوجهين إلى القدس. وكان إبرامسون يقود سيارة وكان برايد يمتطي صهوة الخيل: ولم يبق في المنطقة إلا بيك ولورانس وأنا طبعاً. وعند الغداء انضم إلينا فؤاد سالم وهو برتبة إمباشي في فرقة الاحتياط. والجدير بالذكر أن القوات الفرنسية في سوريا كانت قد حكمت عليه وعلى عدد آخر من الرجال بالإعدام لقيامهم بغارة على موقع عسكري فرنسي أسفر عن قتل أربعين جندياً فرنسياً وأسر ما تبقى منهم، لكنهم في وقت لاحق أطلقوا سراحهم بعد أن جردوهم من ملابسهم وأجبروهم على العودة عراة من حيث أتوا. ويبدو أن المشكلة نجمت عن اعتداء رجل فرنسي على فتاة درزية وقتل شقيقها الذي تدخل لحمايتها. كانت علاقاتنا مع الفرنسيين غير مرضية، لكنني أفضل أن أدرس المسألة بتفاصيلها قبل أن أتخذ قراراً شخصياً فيها، أو أتخذ أي إجراء آخر. وحدث مؤخراً أن ذهب رجل سوري إلى القدس يدعى إبراهيم هنانو حاملاً رسالة توصية من الأمير موجهة إلى السلطات هناك. لكن الرسميين في القدس قاموا بتسليم هنانو إلى السلطات الفرنسية: وكان ذلك الحدث مصدر إزعاج بالغ الأهمية. ذكرت بعض التقارير فيما بعد أن السلطات الفرنسية برأت هنانو من التهمة الموجهة إليه، علماً بأنه لم تصلنا أخبار رسمية بذلك الخصوص. وبالمناسبة أقول: إنه منذ وصولي إلى هنا لم يحدث أن سمعت المزيد عن اقتراح تسليم الأشخاص المطلوبين والمتورطين في محاولة النيل من الجنرال غورو. كان لورانس قد صرح في الاجتماع الذي عقد في الثامن والعشرين من ذلك الشهر بأنه كان متأكداً بأن بإمكانه أن يرتب مع

حكومة الأمير أمر اعتقال واستسلام هؤلاء الأشخاص، أعتقد أيضاً أنه كان بإمكاني أيضاً أن أفعل الشيء نفسه. لكن هذا أمر ستثبت الأيام صحته!».

«في الواقع لم يحدث أي شيء بهذا الخصوص: اتضح في الوقت المناسب أن عدداً من الأشخاص المطلوبين للفرنسيين كانوا قد ماتوا، وأن عدداً آخر منهم كانوا مجرد أطفال، كما أن عدداً آخر كانوا في واقع الأمر في سوريا، كما تم تبرئة عدد آخر لأنهم كانوا في مكان آخر عند وقوع الجريمة.

وفي اليوم الأول من شهر ديسمبر (كانون الأول) جاء تقرير مفاده أن رجال الشرطة المحليين جابهوا المضربين عن العمل وكانت النتائج مرضية، وعليه تم استدعاء غالب باشا الشعلان والسيد مضر، وتحدث لورانس معهما، أما أنا فتحدثت مع صبحي بيك وهو مساعد الجنرال حداد باشا قائد فيلق فيصل في سوريا والذي سبق لي أن قابلته عندما كنت في طريقي من عمان إلى لندن. وكانت لديه أفكار محددة تتعلق بالإجراءات اللازمة لتحسين أداء الحكومة، وأعترف بأن الأمل كان ضعيفاً في تحقيق أي نجاح في ظل الظروف الراهنة. كما كان يعتقد أنه إذا وصل الأمير زيد -وهو شقيق عبدالله الأصغر-، كما توقعت بعض المصادر، يمكن عندها كسر طوق سير الأمور الراهنة وإعادة ترتيبها على أساس أفضل. وكان ذلك افتراض مسبق يهدف لتجسيد الإشاعة التي تقول بأن عبد الله كان على وشك القيام بزيارة إلى لندن. أفضى لورانس إليَّ بما في نفسه قائلاً بأن تلك المصادفة ليست بالأمر غير المحتمل. وللوهلة الأولى كنت ميالاً لدعم حكومة مضر لكونها وسيلة من المحتمل أن تخدم الغاية العامة للحكومة، وبالتالي تخدم غايات أخرى».

كان على ما يبدو يتم ترتيب العديد من الدسائس، لكن صبحي أوضح لي بأنه لن يمانع في قبول منصب رفيع المستوى في حكومة نظيفة. قاطع بيك ما كان صبحي يسره لي، وبعدها توجهت مع لورانس إلى منزلي لتناول طعام الغداء مستخدماً ما ورثته من إبرامبسون من أوانٍ منزلية، ومستفيداً من خدمات طباخ وصبي كانا يقومان بكافة الأغراض. لم يكن الطباخ متميزاً لكن كان ما يقدمه لنا من طعام قابلاً للأكل. بعدها زرنا القلعة الرومانية لنتفقد سير العمل الذي كان يقوم به البناء الأردني، والذي كان لورانس قد كلفه في دعم أساس أحد الأقواس المتداعية قبل أن تداهمه مياه فيضان نهر اليرموك التي ربما تطيح به كلياً. بعدها زرت الشريف شاكر بن زيد وهو مستشار عبدالله في كافة الأمور التي تتعلق بالقبائل البدوية. وهناك وجدته جالساً على شرفة عالية في بيته، وكانت تطل على منظر بديع من مدينة عمان ووواديها. كان شاكر بن زيد رجل صحراء حقيقي. وأمضيت معه ساعة من الزمن تحدثنا فيها عن نجد وعن أمور الصيد وعن الصقور وما شابه ذلك إلى أن انضم إلينا لورانس.

تحول الحديث إلى موضوع الدين بشكل عام وموضوع الشراكسة بشكل خاص، -وهم أبناء شمال غرب القفقاز- الذين وصفهم شاكر بالعنصر الوحيد في تلك الأرجاء الذين يتمتعون بوميض تعصب ديني.

لم يكن ذلك المكان المناسب للتحدث بإسهاب عن الشراكسة في مناطق عبر الأردن والذين هم في الواقع لم يحظوا بانتباه العديد من الكتاب في البلاد. لكني أقول: إن العديد منهم نزحوا من مناطق عمان والصويلح وجرش إضافة إلى مناطق أخرى باتجاه سوريا وذلك بعد الحرب الروسية التركية في عام ١٨٧٧م. إن الخمسين عاماً التي انقضت لم تفضِ إلى اندماجهم في أواسط العرب المحليين.

كانت نسائهم بالطبع مشهورات بجمالهن، كما أن أعمالهن المنزلية كانت منتشرة في كافة أرجاء الشرق الأوسط، وكان البعض منهن متزوجات، وكان البعض الآخر خليلات أو خادمات. لكنهم بصفتهم عرقاً لم يكن مثلهم بين العرب. أما شاكر الذي اعترف بأن والدته كانت شركسية، صرح بأنه يحتقرهم. وقال: إنه لا يفهم حديثهم الذي وصفه بالبذيء. وفي ظل الحكم العثماني كان تصرف الشراكسة نحو العرب تصرفاً وقحاً متغطرساً، واستمر ذلك إلى أن جاءت الحرب العظمى، ودارت دائرة الأيام لصالح من كان في أحد الأيام الضحية المضطهدة.

وكالعادة توجهت مع لورانس لتناول طعام العشاء في بيت بيك استعداداً للقيام بحملة باتجاه منطقة المفرق كان مقرراً القيام بها في صباح اليوم التالي.

كرسنا ذلك اليوم لرحلة المفرق والمناطق المجاورة لها. وجاءت تلك الحملة في أعقاب حادثة إطلاق النار على القطار المتجه جنوباً التي أشرت إليها في مذكراتي بتاريخ التاسع والعشرين من هذا الشهر. حدث في مساء اليوم المنصرم أن أعددنا سيارة مصفحة وحملنا سيارة رولز رويس على ظهر سيارة شحن. أما أنا ولورانس فاجتمعنا في محطة سكة الحديد في الساعة التاسعة صباحاً. حدث بعض التأخير بسبب تجهيز القطار واتضح لنا في النهاية أن حمولته كانت ثقيلة ولم يكن بقدرة المحرك السير بها على أعالي المنحدرات؛ ولذلك تم إرسال أربعة سيارات شحن وانتظرنا وصول قطار خاص متوجه إلى دمشق محملاً بالحبوب المرسلة إلى الأسواق الدمشقية. كانت في ذلك الموسم تتم أعمال تجارية نشطة بين عمان ودمشق. وكانت الرحلة إلى المفرق أول رحلة داخلية أقوم بها، إذ إنني لم أسافر إلا على طريق عمان - القدس. وعلى أية حال كانت تلك الرحلة مشوقة جداً. في البداية كان علينا أن نهبط المنحدر المؤدي إلى الرصيفة وهي قرية صغيرة على

تل يشرف على مساحة واسعة من الأراضي الزراعية التي تروى بمياه الجداول التي تنساب فيها. وبعدها صعدنا الوادي باتجاه الزرقاء، وهناك شاهدنا قلعة الحج القديمة وهي تطل من قرية على جرف عال شديد التحدر. بعدها شاهدنا أيضاً طريق الحجاج الذي تكثر فيه دروب الجمال، وقد كانت تسلكه قوافل الحجاج من سوريا لقرون عديدة قبل إنشاء سكة الحديد. وبين الفينة والفينة كنا نشاهد مجموعات من الآثار الرومانية على كلا جانبي محطة السمرة في مكان مهجور موحش يكثر فيه الحجر البازلتي. وكانت المحطة ذاتها وإلى جانبها قرية رومانية متجهمة مبنية كلية من الحجر البازلتي[1]. بعدها مررنا بالجسور ومجاري المياه القذرة، وكل واحدة منها تشهد مآثر الأعمال البطولية التي قام بها رجال العصابات تحت إمرة لورانس خلال فترة الحرب.

وأخيراً جاء التسلق الصعب باتجاه سهول المفرق التي داهمتنا أراضيها الشاسعة الممتدة باتجاه التلال البركانية في جبل الدروز. وفي ذلك الجبل كانت تجثم بعض القرى الكئيبة مثل قرية أم الجمل، لكن غيوم عاصفة هوجاء كانت تنذر بشر مرتقب. تم إنزال الشاحنات التي كانت محملة بالعربات ووضعت على ألواح خشبية قوية ذات سكة تستخدم لإنزال العربات من الشاحنات. لكن تلك الألواح لم تكن في حالة جيدة كما أن العمال الذين كانوا يتولون تلك المهمة كانت تنقصهم الخبرة. لكن بعد جهد مضنٍ تم إنجاز المهمة، وكانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف مساء، ولم يبق على حلول الظلام سوى ساعة ونصف الساعة. ركب لورانس وغوردن في مقطورة الوقود في المقدمة في حين ركبت أنا في السيارة المصفحة وركب معي بعض رجال قيادة قوات الاحتياط. وسرنا نترنح بين الوهاد

(١) المقصود بذلك مدينة جرش المشهورة بآثارها الرومانية.

والوديان التي كانت تكثر فيها جحور الجرذان التي يطلق عليه العرب اسم الخلند إلى أن وصلنا إلى خيام جماعة إبراهيم بن غازي وهو شيخ المشاقبة من قبيلة بني حسن. لم يجد الشيخ وجماعته صعوبة في إقناع لورانس الذي كان بالطبع قائداً للحملة بأن لا دخل لهم في الحادثة التي كنا بصدد التحقيق بها. وعلى مسافة قريبة باتجاه الشمال وصلنا إلى منطقة كانت فيها مجموعتان من الخيام. وعند المجموعة الأولى التي كانت تابعة لقبيلة السرحان شاهدنا موكباً كبيراً من الرجال المسلحين والنساء وهم يمضون في سبيلهم نحو حفل زواج. أعرب هؤلاء أيضاً عن عدم علاقتهم بحادثة إطلاق النار على القطار. وتوجهنا إلى المجموعة الأخرى التي كانت تخيم على أحد المرتفعات الوعرة. وهناك سارت العربة المصفحة بشيء من الصعوبة. وفي أعلى التل وجدنا أنفسنا وسط معسكر كبير لقبيلة الجبيلية وهي عشيرة عربية تتخذ من جبل الدروز مقراً لها. وهناك قصدنا خيمة شيخ القبيلة والمدعو غازي.

قام شخص يدعى صداح وهو رجل موثوق من عتيبة يعمل عند الأمير عبدالله باستجواب الشيخ غازي بتوجيهات من لورانس. وفي تلك الأثناء وقفنا جميعنا موقف المتفرج. وأخيراً اتضح أن رجال هذه الجماعة كانوا هم الذين أطلقوا النار على القطار. وبينما كان يعترف بالتهمة الموجهة إليه، حاول غازي أن يحملنا على الاعتقاد بأنهم كانوا في حقيقة الأمر يدافعون عن أنفسهم ضد جماعة من قبيلة أخرى غازية وحدث مرور القطار بين الفريقين المتحاربين. لم يقتنع لورانس بذلك التبرير، لكن الوقت قد أصبح متأخراً. وكان لورانس هادئاً وحازماً، فقال للشيخ غازي بأن عليه التوجه معنا إلى عَمَّان ليشرح تصرف رجال قبيلته إلى الأمير عبدالله شخصياً. بدا لي أننا لم نكن في وضع قويٍّ يمكننا من الإصرار على أي

شيء، لكن الشيخ غـازي كان متأكداً من سـلامته الشخصـية ومن هنا وافق على القدوم معنا على الرغم من التمتـمة التي دلت على تذمر الرجال من حوله. وأثناء توجهنا إلى السيارات اعترضت سبـيلنا زوجة غازي لتمنع ذهاب زوجها معنا. نجم عن ذلك المزيد من الجدل، لكن أحـد الرجال العرب صـرخ قائلاً له: «ادخل في السيـارة وضع حداً لهذا الإشكال». لكن كـان من الصعب على الشـيخ غازي أن يخالف ذلك الزخم من الاعتـراض على ذهابه شخصياً معنا. وتم الاتـفاق أخيراً على أن يذهب ابنه مـعنا بدلاً منه. وبعـد أن أخذ هذا الابن غـترة وعقـال والده ركب معنا وسط عـويل وصراخ ودموع زوجـته التي كانت -على مـا يبدو- على وشك أن تلد مـولودها. وعلـى الفـور انطلقت السـيـارات مـخلفـة وراءها تلك المضارب.

لم يخيـم الظلام بعد وكان ضـوء النهار يكفي لـنرى طريقنا، لكن سرعـان ما داهمنا الظلام وأصبحنا نتقدم ببطء في منحنيات الطريق المتجهة جنوباً نحو المفرق. وصلنا المحطة في الساعة السـابعة مساءً، لكن أمر وضع الحـمولة على الشاحنات كان أكـثر صعـوبة من أمر تفريغـها، تخلينا عن تنزيل الحـمولة وتركنا السـيارات جاثمة هناك طيلة الليل تحت حـراسة رجال ماكونلج باعتـباره الضابط المسؤول عن أمور المواصلات. توجـهت أنا ولورانس وغوردون إلى عمان عند حـوالي الساعة التاسـعة والنصف. كان المطر يهطل علينا بين الحين والآخـر، لكنه تحول إلى رذاذ وأصبح تقدم السيارات شيئاً صعبـاً للغاية. استغرق أمر وصولنا إلى الزرقاء حوالي الساعتين كـما أمضينا حـوالي الساعة في إصلاح بعض الأمور الميكـانيكية. كانت الساعة قد وصـلت إلى الواحدة والنصف صباحاً عندما وصلنا إلى مـحطة عمان، وهناك سـرت لمدة سـاعة مع لورانس على طـريق موحل وعـر حـتى وصلنا إلى

منزلنا. وهنا أيقظت خادم بيك ليعد لنا شيئاً نأكله، وبعدها خلدت إلى النوم العميق متناسياً متاعب ومخاطر يوم طويل شاق. كانت ثيابي مبللة بالماء كما أن غوردون كان يتألم من سقوطه من على ظهر الحصان، وأما لورانس الذي أصر على الجلوس على غطاء المحرك طيلة الرحلة تعرض لبرد شديد أنهك قواه. ولكن المضحك هو أنه بينما كان كافة الرجال منشغلين في تحميل العربات على القطار، سمعنا طلقة عيار ناري بددت سكون الليل. بعدها قدم إلينا صنداح وهو يصرخ ويقول: لقد هرب الرجل! عندها بدأ لورانس بالضحك، واتفق الجميع على أنه من المحتمل أن يكون صنداح هو الذي هَرَّب الرجل عن قصد، لكنه تظاهر بتلك التمثيلية. خطر ببالي أن لورانس نفسه هو الذي أصدر تعليماته لـ صنداح ليهرب الرجل. في حقيقة الأمر، كان لورانس قد تشاور معي -خاصة وأننا قد أدخلنا الرعب في قلوب جماعة الجبيلية- بأمر إطلاق سراح ابن الشيخ. وكنت قد وافقت على اقتراحه وعليه ذهب لورانس إلى غوردون ليتشاور معه في الأمر.

وفي الثالث من ديسمبر (كانون الأول) أي في اليوم التالي عانى لورانس بسبب التعب الناجم عن تلك الحملة. أما أنا وحميد باشا فلعبنا الشطرنج مع الأمير عبدالله وفزنا عليه في ثلاث جولات متتالية. بعدها توجهنا إلى السرايا لمناقشة بعض الأمور مع مضر باشا وكانت تلك أول تجربتي في مباشرة مهامي التي كان من غير المعقول بالنسبة لي أن أباشرها بشكل جدي. وكان موضوع حديثنا الرسالة التي تتعلق بالدستور والتي سبق أن أشرت إليها. ومن بين الأمور الأخرى التي تباحثنا فيها موضوع الغارة التي تعرضت لها قرية الطيبة في منطقة عجلون والتي غنم فيها رجال الجبور التابعون لقبيلة بني صخر مئة وخمسين رأس غنم نعموا بها في المناطق الصحراوية الممتدة حتى منطقة الأزرق.

تحدثت مع غوردون حول إمكانية استخدام العربات المصفحة لإعادة الغنم -أو دفع قيمتها-. وتباحثنا أيضاً في أوضاع قوات الاحتياط وقوات الجندرما إلى جانب عدد آخر من القضايا التي لا علاقة لها بحالة لورانس. وفي الرابع من كانون الأول حدث أيضاً التالي: «انطلقت أنا ولورانس في سيارة الفورد وقمنا بجولة. كان سائقي الخاص محمد يقوم بتولي القيادة. توجهنا إلى مناطق تجمع المياه في الأزرق. وبعد الزيارات التي قمنا بها لمحطة سكة الحديد ومقر القيادة للنظر في مختلف القضايا سلكنا طريق الوادي المتعرج المؤدي إلى الزرقاء الذي يقع في منتصف الطريق بين عمان ومحطة سكة الحديد. وعند رأس الوادي وصلنا إلى الخط القريب من محطة القصر ومررنا بعدد من الأطلال الرومانية إلى أن وصلنا إلى محطة لوبان بعد أن ضللنا الطريق. كان الفلاحون قد حرثوا كافة الأراضي الواقعة على جانبي الطريق من أجل زراعتها وكان منظرها واعداً بالخير. ولأننا لم نستطع أن نحدد موقع الطريق الرئيس المعبد سلكنا طريقاً متعرجا لنصل إلى جسر موقر، وتوقفنا عند مختلف أنواع الأطلال وتفحصناها قبل أن نصل إلى مضارب خيام الشيخ الذي كان من جماعة خرشان التابعة لقبيلة بني صخر.

وبعد أن زرنا القلعة القديمة لعرب كرانا والتقطنا هناك بعض الصور تابعنا سيرنا في الصحراء إلى أن اضطررنا بسبب الظلام للتوقف لقضاء تلك الليلة خلف وادي الحريث الذي تكثر فيه الصخور البركانية.

جمعنا بعض نباتات الشيح لنجعل منها فراشاً ليناً ننام عليه، وكان عشاؤنا من المقانق المعلبة والخبز، وخلدنا إلى النوم في الساعة الثامنة. انقضت ساعات تلك الليلة ولم يكن البرد شديداً، لكن نومنا لم يكن متواصلاً بسبب خشونة الحال.

وفي الساعة السادسة والنصف انطلقنا مجدداً عبر قفاري الصخور السوداء وهناك عثرنا على آثار عربات رحلات الاستطلاع التي سارت في العام الماضي ووصلت إلى بغداد، وهناك أقامت مركزاً للبريد لا يزال قيد الاستخدام. استغرق وصولنا إلى الأزرق أكثر من نصف ساعة تقريباً، وهناك وجدنا مستنقعات وتجمعات لمياه الأمطار تحيط بها الصخور البركانية. وفي الطرف الشمالي منها كانت تجثم أطلال القلعة الرومانية، وهي واحدة من المواقع المتقدمة للإمبراطورية الرومانية. وعندما توقفنا هناك لالتقاط بعض الصور انطلقت من القلعة بعض الأغنام والخيول وكان صاحبها يجري خلفها. واتضح فيما بعد أن فريقاً صغيراً من القرويين الدروز كانوا يتخذون من تلك الأطلال مكاناً لقضاء أيام الشتاء. وكان قد مضى على إقامتهم فيها حوالي أسبوع. كان هؤلاء الرجال ودودين للغاية وطلبوا منا أن نبقى في ضيافتهم لبضعة أيام. وبالقرب من أماكن المياه تلك شاهدنا أفواجاً من البط والوز وأنواعاً أخرى من الطيور المائية، كما أن المياه كانت تعج بالأسماك ذات الحجم الكبير. وكانت بالقرب من القلعة واحة نخيل صغيرة ولم يكن لها إلا مدخل واحد من خلال الجدار الجنوبي الغربي الذي كان يحمل كتابات باللغة العربية تدل على أن من قام ببناء القلعة أو من أحدث بعض الإصلاحات عليها كان شخصاً يدعى عز الدين أيبك الشدادي إلى جانب اسمه كتبت عبارة (ملك الصحراء) ويبدو أنه كان أحد الحكام في السنة الألف بعد الميلاد أو ربما قبل ذلك. وكان في داخل المعبد مذبح مكتوب عليه في الأعلى باللغة اللاتينية وفي الأسفل باللغة اليونانية: عبارات تدل على أن المذبح كان من صنع جوثيان وهرقل المشار إليهما في الأساطير القديمة. ومما لا شك فيه أنهما كانا موجودين في ذلك الموقع. بعدها توجهنا إلى أحد الينابيع الرئيسة في تلك المنطقة تاركين ورائنا بعض القبور

التي لم ندقق فيها والتي كان من بينها -وفق ما قال لي لورانس- العديد من الأعمدة الرومانية القديمة. كان الطريق إلى ذلك الينبوع مليئاً بنبات القصب وكانت تحيط به حواجز من الحجارة السوداء التي تمثل -حسب رأي لورانس- حدود تجمع المياه العائدة للإمبراطورية الرومانية. وبعد أن جلنا بها وشربت الجمال منها جلست مع لورانس لتناول الطعام. وفجأة سمعنا صوت عدد كبير من الأشخاص العرب الذين كانوا يركبون الدواب والخيول، واتضح لنا بأنهم كانوا ينوون غزونا. وعلى الفور توجهنا نحو سياراتنا آملين بأن لا يُلحق هؤلاء القوم بنا الضرر. وبعد أن احتشدت صفوفهم اقترب منا حوالي ثلاثين فارساً وحيونا بتحية الإسلام وكان ردنا عليهم بالمثل: «وعليكم السلام». لم نطرح عليهم أية أسئلة، لكن كان إحساسنا بأنهم من جماعة الرّولة من منطقة الجوف، ومما لا شك فيه أنهم كانوا في طريقهم للإغارة على مناطق جبل الدروز. ولسبب ما سألونا عن مكان فيصل وأخبرناهم بأنه في بغداد.. ومن المحتمل أنهم كانوا على علم بذلك. في تلك الأثناء قام السائق محمد بتجهيز السيارات إذ إننا لم نكن ننوي إطالة المقابلة معهم.

كانت الجوف في تلك الفترة منطقة لا تخضع لسلطان أي رجل[1]، لكن الناس هناك كانوا يعترفون بسلطة نوري الشعلان عليها. ونوري الشعلان هذا من كبار قادة الرّولة، وكان قد استقر في أواخر عمره في ربوع دمشق في حين كان حفيده سلطان بن نواف يسيطر على مناطق الجوف ومناطق وادي السرحان. كان نوري قد تجاوز الثمانين، ولكون تفكيره نقياً تمكن من إدراك المكاسب التي يمكن أن يحققها من كونه محور وقبلة أنظار كل الطموحات المتضاربة. كان يعرف كيف يستغل الأمور: فكان يتلقى الهبات المجزية من الفرنسيين ومن الأمير عبدالله، وكذلك من

(١) يقصد قبل انضمامها إلى البلاد السعودية.

ابن سعود الذي ورث الآن كافة الامتيازات التي كانت تتمتع بها عائلة آل رشيد. وسبق أن أشرت إلى تلهف لورانس في أن يجعل للشعلان مكانة في مناطق عبر الأردن، علماً بأنه كانت لدي شكوك قوية احتفظت بها لنفسي، تتعلق فيما إذا كان ابن سعود سيسمح لنا بذلك. هذا؛ وكتبت في مذكراتي الملاحظة التالية:

«بعد أن تركنا زوارنا بسلام توجهنا بعيداً لنتوارى عن أنظارهم. سلكنا طريقاً يتجه نوعاً ما نحو الجنوب لنعرج على القلعة العربية القديمة والتي تدعى (قصر عمرة). استغرق وصولنا إلى عمان ست ساعات، توقفنا خلالها لإصلاح عجلتين، كما مررنا بخيام جماعة جبور التابعة لقبيلة بني صخر والتي كانت تبدو عليها البراءة على الرغم من أنها كانت المسؤولة عن الغارة التي تعرضت لها جماعة الطيبة. كان بيك قد غادر إلى مصر وكتب تقريراً بعث به إلى غوردون قال فيه: إن إحدى طائرات الاستطلاع تعرفت على موقع مضارب الشيخ غازي وهو الموقع الذي قابلناه فيه. وقال: إنه يأمل الآن أنهم لن يتدخلوا مجدداً في حركة القطارات على سكة الحديد».

تناولت مذكراتي اليومية أيضاً أحداث الأيام الثلاثة اللاحقة:

«شكلت أحداث هذه الأيام مرحلة مهمة في عملي بهذا البلد. وبعد أن حقق لورانس طموحه في مشاهدة منطقة الأزرق وهي المنطقة التي شهدت الكثير من نشاطاته في أيام الحرب، تلقى برقية من وزارة الخارجية تخوله إنجاز معاهدة الحجاز مع الأمير عبدالله وفق البنود التي كان قد اقترحها في برقية سابقة. وفي الثامن من كانون الأول وقع لورانس وعبدالله نسختين مكتوبتين باللغة العربية والإنجليزية عن وثيقة طنانة رنانة مثقلة بالاحتمالات المتنوعة التي لم تعد تحتاج إلا

إلى تصديق الملك حسين والملك جورج لتصبح سارية المفعول ولمدة متفق عليها تمتد حتى سبع سنوات. شعرت أنه من غير الوارد أن يستفيد أي طرف من الأطراف المعنية من تلك الوثيقة باعتبار أن حكومة جلالة الملكة البريطانية تمتنع عن الدفاع عن الملك حسين حيال أي اعتداء يمكن أن يقوم به ابن سعود أو يقوم به الحاكم الإدريسي في منطقة عسير مع استثناء واحد هو أنه يمكن لبريطانيا أن تتدخل إذا كان بالإمكان حل الخلاف بالوسائل السلمية العملية. تقرر أن يذهب لورانس إلى جدة ليحصل على مصادقة الملك حسين على تلك الوثيقة. وفعلاً غادر لورانس عمان للمرة الأخيرة بعد أن تناول معي طعام الغذاء في اليوم الثامن من كانون الأول».

ولأختم هذا الموضوع يمكن لي أن أشير هنا إلى أن مهمة لورانس إلى جدة كانت فاشلة؛ لأن الملك حسين وحكومة بغداد رفضا المصادقة على سياسة الاعتراف بإقامة دولة يهودية في فلسطين التي كانت -على ما يبدو- شرطاً ضرورياً لا رجعة عنه في اتفاقية عمان. لم يتم التصديق على تلك المعاهدة، وعليه غادر لورانس الجزيرة العربية دون رجعة. لكن فكرة احتمال عودته ظلت تطاردني في كافة أرجاء مناطق عبر الأردن.

ذكرت في مذكرتي المؤرخة في الثامن من ديسمبر (كانون الأول) أن رحيل لورانس وضعني أمام مسؤوليات مهامي، كما أنه في الوقت نفسه أحدث فجوة كان من الصعب ردمها. يعلم لورانس كما هو معلوم أيضاً لكل الناس في هذه المناطق أنه أحدث تغييراً كبيراً في الأوضاع؛ لأنه شارك لسنوات طويلة في العلميات العسكرية التي تمت في أعالي المواقع التي كانت تصل إليها عربات سكة الحديد. فقد حول النظرة المتشائمة إلى نظرة متفائلة، وأصبحت الإدارة التي أقامها

لورانس تعمل بشكل سلس. وأصبح عبدالله أيضاً راضياً لكونه ألعوبة تحكم بأوامر من أسياده. وبالمختصر فإن الوضع ينم عن احتمالات عدة. ستصبح قوات الجندرما التي هي بقيادة بيك حجر عثرة أمام الأوضاع الراهنة، لكن التوصل إلى تسوية بخصوص وضعها النهائي وموضوع استسلام القتلة الذين اعتدوا على الجنرال غورو ستتحول جميعها إلى مشاكل جادة تستدعي أن أكرس لها جل اهتمامي.

إن لم يكن لورانس متشدداً في أساليبه الإدارية فقد كان على الأقل نشطاً فعالاً، ومن بين السلبيات التي ورثتها عنه من أعمال كانت مشكلة الصفحة الفارغة من التاريخ القديم التي تتعلق بمناطق عبر الأردن. لا بد أن يكون إبرامبسون محتفظاً ببعض الوثائق التي لا بد وأن يكون قد أخذها معه إلى القدس، ذلك إذا لم يكن لورانس قد أتلفها كلها. وكل ما سلمني إياه قبل رحيله كان بضعة وثائق سرية بما فيها مراسلات ماكماهون مع الشريف حسين قبل الثورة العربية التي اشتملت أيضاً على بضع صفحات دون عليها حساب النفقات التي بلغت مئة ألف جنيه إسترليني، وهي التي صرفت خلال فترة وجوده في ذلك المنصب. لاحظت أن مادة من مواد النفقات التي بلغت عشرة الآف جنيه رُقمت بأنها من المفقودات التي ليس لها سجل موثق. وحدث بمحض الصدفة أنه تم العثور فيما بعد على صندوق أمانات حديدي مدفون في رمال كثبان العقبة وبداخله عشرة الآف قطعة ذهبية.

عندما غادر لورانس كان قد بلغ عمر الدولة الأردنية ثمانية أشهر فقط. وعلى مدى عامين ونصف بعد ذلك أصبحت أنا وبيك نعالج المشاكل الصعبة في تلك الدولة التي لم تكن سوى جنين واعد عهدت بها إلى الكولونيل هارولد كوكس،

لكن الوضع كان مختلفاً تماماً عن السنوات العجاف التي امتدت حتى حلول نظام ما يسمى بطائر القاوند، وهو نظام ظهر فيه كل من أليك كيركبيرد وغلوب باشا. كان حلم لورانس أن يسيطر الأشراف على مناطق الجزيرة العربية كلها قد تحطم وتلاشى بفعل ما قام به ابن سعود من أعمال. وظل ما بقي من معالم ذلك الحلم موجوداً في العراق والأردن، وهما البلدان اللذان كان يحكمهما ملوك من الأشراف صغار السن، وكانوا يتحررون ببطء من قيود قماط الأطفال الذي فرض عليهم من قبل البريطانيين ضمن دوامة القومية العربية.

هناك ثمة كراسة تربطني بلورانس وهي تتعلق بفكرة تحويل خارطة الشرق الأوسط. كانت تلك الكراسة بعنوان (الأروقة المقنطرة لحقبة زمنية منسية). من المحتمل أن نكون بالفعل قد أدينا دوراً في ذلك التحول.